أهواك بلا أملِ

عمار ديب

فيروز وحكاية ٢

أهواك بلا أملِ

_كيفك إنتَ؟

_بشتقلك لا بقدر شوفك ولا بقدر أحكيك

_بتذكر وقتا آخر كلمة قلتا؟

_بخاطرك صليلي، تسعد يا حبيبي.

_ما عدت شفتك.

_لفتة من بعيد بتكفيني، وقلبي إلك على طول.

لقمرية الوجه:

"من أجلك، ألف مرة ومرة"

من أجلك، كلُّ الكلام يُصاغ..

لكنني تعلّمت أن ما يقولونه عن الماضي، عن قدرتك على دفنه، خطأ. لأن الماضي يشق طريقه.

عداء الطائرة الورقية

ما قدرت نسيت

زعلي طوّل أنا وياك

"يا ريتك هون حبيبي وليل"

منذ رحيلك وعقارب الساعة تلدغ قلبي، وبت أشعر بثقل الثواني كما لم أشعر بذلك من قبل، فمهووس الوقت الذي تعرفينه أصبح أرعناً ومهملاً..

أصبح متيّماً عاثر الحظ حقاً..

يبدو أن ما أقوله ليس مفهوماً حتى الآن.. وهذا لم يعد يُشعر قلبي بالاضطراب كثيراً، أي أنَّ ترابط الكلمات وحُسن السرد وسلامة التراكيب لم يعد أمراً ذا بال..

لم يعد تكرار الكلمات يقلقني. والوقت، لم يعد شيئاً يجعلني ضياعه كئيباً..

كلُّ ما في الأمر أن اضطرابي وحزني وكآبتي، جميع هذه الأمور سبّبها اشتياقي وحنيني..

أما عن قلقي الآن، فأظنَّ أن قولي لكِ بأنني سأتوقف عن الكتابة لكِ وتراجعي عن هذا القرار هو المسبب الأول له..

لكن، ما رأيكِ لو عقدنا اتفاقاً صغيراً؟

ما رأيكِ لو كانت هذه الحكاية التي أخاطبك عبرها، وأتحايل على اللون الأدبي بإخبار القراء بأنها حكاية وهي ليست إلا رسالة جديدة أُسطّرها إليكِ، هي خاتمة رسائلي وبداية حكاياتي الجديدة التي أنوي كتابتها في هذا الكتاب؟

أليس عدلاً أن أبدأ بكِ وأترك النهاية مجهولة كما كانت حكايتي برفقتكِ؟

وفي سبيل إحكام خطوط حيلتي، ولكي لا أخرج عن النسق الذي اعتدت الكتابة به سأختتم بالقول:

"زعلي طول أنا وياك"

كتبنا وما كتبنا

"بتذكر لما عالدار مسوية طليت"

ماتزال وصايا حبيبتي ملازمةً لي في كلِّ تفاصيل حياتي، أراها أمامي في كلِّ مكان..

يناديني المعطف حين يشتدُّ برد الشتاء وتصرخ المدفأة، حتى جسدي الذي أملكه أشعر به خارجاً عن إرادتي، إذ يزيد من ارتجافه ويجعلني عاجزاً عن القيام بالأعمال التي يتوجب عليَّ إنجازها.

في تلك الليلة حاولت التمرّد على تلك الوصايا، وكنت أريد العودة إلى عبثيتي ولامبالاتي تجاه البرد القارص، أطفأت المدفأة ورفضت دعوة المعطف وجلست أرتجف غير عابئ باصطكاك أسناني ثم ضممت يديَّ إلى صدري ونظرت إليهما ورجوتهما أن يساعداني على الكتابة فظننت بأنني أفلحت حين بدأت أُسطر كلاماً مفككاً ضائعاً..

مزّقت الأوراق ورميت القلم وصحت:

_خائنان.. متواطئان.

ثم خرجت إلى الشرفة لأضاعف من عذابي وأقسو على نفسي علها تتحرر، وما إن وقفت وألقيت نظرةً سريعة على الطريق حتى رأيت طيفها واقفاً على الرصيف المقابل.

كان حزيناً مرتجفاً، دعوته فلبى النداء واقترب مني ثم عانقني وهمس في أذني:

_أو تتوب عن حبي، وتشنُّ الحرب على وصاياي؟

أرسلت السماء أمطارها وجعلت لقائي بطيفها أكثر حناناً وأدعى إلى إحياء الحب فأجبت:

"قلنا تبنا وما تبنا"

عصفورة الشجن

"أنا يا عصفورة الشجنِ.. مثل عينيكِ بلا وطنِ"

في كلِّ صباح من صباحات الصيف المنصرم كنت أجلس بعد طردي للنوم المقيت وأتأمل تلك السماء التي تستعد لمحاربة لهيب الشمس واحتراقها.

أُلقي عليها التحية وأطرح عليها أسئلتي المعتادة:

_أخبريني أيتها السماء، ما مقدار التعاسة التي سيعيشها وطني اليوم؟ أخبريني، متى ترسمين بسحابك أو بنجومك صورة من أحبها وأشتاق إليها؟

لم أتلقَّ أيَّ إجابة طوال أيام على الرغم من بقائي على ذلك الحال، منتظراً لساعات، لكنَّ أملي لم ينضب.

ذات صباح، وفور جلوسي وقبل أن أرفع عينيَّ نحو السماء لأطرح عليها تلك الأسئلة سمعت صوت عصفورٍ فالتفتُّ.

كان عصفوراً جميلاً، أزرق اللون لطيف المظهر..

قمت باستقباله بأن فتحت له باب الشرفة، فدخل بهدوء وأرسل لحناً عذباً جعلني أعتقد أنه سلامٌ رقيق يملؤه الود..

تبادلنا النظرات مدة دقيقتين وظلَّ الصمت مطبقاً على المكان إلى أن قطعته بالقول:

_أهلاً يا صديقي العصفور.. كيف حالك؟

فأجابني بلحنٍ طويل يبعث على الحزن.

طأطأت الرأس وقلت:

_أرسلتك السماء لإخباري بأن الحزن سيظل حاضراً في وطني وبأن الفراق سيكون أكثر لوعةً في قادم الأيام، وبأنني سأظلُّ مشرداً حتى بين جدران منزلي؟!

أجابني بالصمت فأردفت:

_يا رسول السماء.. هلّا أسديت إليَّ معروفاً
وذهبت إلى أرض من أحب لتخبرها:

"أنا عيناكِ هما سكني"

في أمل

"عمري قدامي عم ينقضى"

ما بال هذا العمر يعدو مسرعاً؟

أهي رغبتي في انقضائه وإنهائه؟

لربما كان هذا..

لكنَّ شيئاً غريباً يحدث..

فالعمر يمضي مسرعاً، لكنني أشعر بأنني سأعيش طويلاً...

ومن فرط التناقض الذي أعيشه لا أدري ما أريد..

أأحزن على حال العمر هكذا؟

أظن بأن ذلك واجبٌ عليَّ، فما من أحدٍ يرجو أن تكون أيامه هي مجرد صباحاتٍ ومساءات تمضي دون جدوى.

لا، لم أكن يوماً هكذا.. إلا في بعض الأحيان.

الفراق شتت أوصالي وعبث بقدرتي على اتخاذ قرار أو العيش برفقة شعورٍ واحد.

قد يبدو سهلاً أن أقول: العمر خالٍ بدونها ولا معنى لمضيه وانقضائه.. فليسرع كيفما يشاء وليطل كما يشاء، فما زال الأمل موجوداً..

(قد يكون هناك أمل)

أهرب من أفكاري وصراعاتي إلى هاتفي..

أرسل رسالةً تذكرها بما مضى.. أطلب الصفح وأتوسل الحنين كي يطرق باب قلبها..

فيأتيني الرد مشتتاً شمل أفكاري التي تحلم بالاستقرار والهدوء:

"ما عاد يلمسني الحنين"

فايق يا هوا

"تاري الدوا حبك"

كان الطبيب يشارك في جنازتي ويشعر بالأسى والذنب..

وكنت أرى الدمع المنسكب يحرق وجنتيه وأشعر بالشفقة عليه..

كلانا كان عاجزاً..

لم أكن قادراً على إرشاده إلى الدواء الوحيد الذي سيشفي كلَّ العلل التي أصابتني، ولم يكن قادراً على فهمي وعلاجي.

كان دوائي حاضراً بين المشيعين، يقف إلى جانب الطبيب، ويا ليتني كنت قادراً على العودة إلى الحياة التي غادرتها..

ليتني كنت قادراً على العيش مرة أُخرى..

لقد عجّلت أمر موتي.. وعادة التسرّع ستظلُّ ملازمةً لي في حياتي وموتي كما يبدو..

كما أنني أرتكب الحماقات دائماً وأصل إلى حقيقة ما كان يتوجب عليَّ فعله متأخر..

نحن هكذا.. هذه الطباع ليست حكراً عليَّ وحدي..

فجميعنا أيها السادة متسرعون، ونصل إلى الحقيقة متأخرين.

أنا الآن مغتبطٌ وفَرِح، فقد تحقق اللقاء بعد طول انتظار، تحقق دون أن أكون قادراً على العناق، لكنني رأيت عينيها أخيراً..

رأيتهما بعد أن طال الغياب..

الملكان قادمان، والدواء ينظر نحوي..

يزداد توتري وأبحث مضطرباً عن طريقةٍ أخبرها فيها:

"فايق يا هوى، ليم كنا سوا"

من عز النوم

"من بين الكل بتسرقني"

تهبنا الحياة في كلِّ مرحلةٍ من مراحلها عادةً جديدة..

عادةٌ وراء عادة، منها القبيح ومنها الحسن..

أما عن عادتي التي اكتسبتها منذ رحيلك فهي أجمل العادات..

شيءٌ أدعو الله أن لا يُبرّئني منه..

إنه الشرود يا عزيزتي، فمتى ذكر اسمكِ أو مرَّ أمامي حتى غبت عن عالمي وأبحرت في بحوركِ العذبة..

صحيحٌ أنني أتلقّى اللوم على هذا غالباً، لكنَّ قلبي يخفق مختالاً مسروراً وعقلي يأبى التفكير بالتخلص من هذا الشرود..

أصبحت أحبه رغم وقوعي في المشاكل بسببه..

النسيان أيضاً يا عزيزتي، لقد اكتسبته مؤخراً، لكنه نسيانٌ لذيد لا أريد الشفاء منه..

نسيانٌ يجعلني لا أذكر إلاكِ..

فإن سُئلت عن أشياءٍ حدثت معي البارحة لم أقدر على الإجابة إلا بالتفاصيل التي عشتها برفقتكِ أو الأحلام التي شاهدتها وكنتِ بطلتها..

نسيانٌ يطفئ النار المشتعلة في داخلي تارةً ويؤججها تارةً..

كالثلج أشعر به وكالجحيم أحترق به..

أظلُّ حائراً إلى أن يعطيني أحد تراتيل فيروز الإجابة..

ترتيلٌ تقول فيه:

"وبتلج الماضي بتحرقني"

ضلوا اتذكرونا

"الله معك يا هوانا، يا مفارقنا"

شاخ القلب وبات عاجزاً عن الرقص، هرم وتشققت أوردته ولم تعد السقيا تنفعه..

حتى الذكريات، لم تعد قادرةً على إعادته إلى شبابه إلا قليلاً..

في كلِّ يومٍ أجلس ممسكاً به.. أُحدّثه علني أخفف عنه.. يطالبني بأن أردَّ إليه تلك الضحكات؛ فقد كانت بالنسبة له إكسير الحياة الذي يجعله شاباً دائماً.

أبحث له بين الرسائل القديمة عن كلمة أحبك فأعثر على الكثير منها..

أنظر إليه مجدداً فأجده قد استردَّ بعضاً من رونقه.

أبحث له بين الرسائل عن الضحكات وأعثر على الكثير منها..

يتراقص على إيقاع الضحكات ويطلب المزيد..
وبعد انقضاء الساعات تتوسل عينيَّ النوم فأرفض..

أريد أن يعود قلبي شاباً من جديد.

يبزغ الفجر ومايزال قلبي يتغذى على الكلمات والضحكات، وتبدأ فيروز بإطلاق ألحانها..

أحاول جاهداً أن لا يتردد على مسامعي لحنٌ يفسد ما أمضيت كلَّ ليلتي في إصلاحه لكنني أفشل..

إذ يتسرّب من النافذة ذلك الترتيل الذي يقول:

"حكم الهوى يا هوانا واتفارقنا"

سألتك حبيبي

"يا دنيي شتي ياسمين"

كان الياسمين متلهفاً لعناقك، لكنه أخطأ كثيراً وخيّب الظن..

استحقَّ عن جدارة عقابكِ له واكتفى بالذبول ثم الموت..

الآن أنظر إليه وأشفق على حالنا..

مات هو وبقيت أنا أصارع الموت..

ولست أصارعه حباً بالحياة، بل تمسكاً بالأمل..

ذلك الأمل الضئيل الذي مازال ينبض في قلبي ويحدثني بأنَّ المطر في الشتاء القادم سيُحيي الياسمين..

وربما ستمطر السماء ياسميناً في ديسمبر المقبل بدلاً من الثلوج، وستكونين حاضرةً لإنقاذه حينها.

قد أناقض نفسي، ودائماً ما أفعل ذلك، حين أقول بأن الأمل قد ولّى وحين أقول الآن بأن الآمل باقٍ..

هذه التقلبات يا عزيزتي خارجةٌ عن نطاق سيطرتي..

هي ملكٌ لقلبي الذي يأبى أوامر العقل..

(أوَ يتقبل القلب حقيقة استحالة اللقاء؟)

لا، إنه يحتضر متى أحس بذلك.. وينعش نفسه بنفسه بالأمل الذي يزرعه الإله فيه..

ينقذه الإله في كلِّ مرة ولست أدري إن كان ذلك زيادةً في عذابه أم رحمةً به.

يرسل رسائله السماوية على هيئة ألحان تخبرني:

"موعدنا بكرا"

بكرا أنت وجايي

"بكرا أنت وجايي رح زين الريـح"

استكمالاً لحكايتي السابقة، وبعد أن تلقيت رسالةً إلهيةً جديدة كانت على هيئة حلم جميل جعلني أهرب من الدفء الذي كان الغطاء سببه إلى الدفء الذي تسببه الكتابة إليكِ، نهضت مسرعاً والتجأت إلى الأوراق لتُخلِّد تفاصيل تلك الرؤيا..

في ذلك الحلم رأيتكِ في سترةٍ زرقاء..

كنتِ تسيرين على شاطئ أحد البحار وكنت أسير نحوك، وما إن تلاقينا حتى تلاقت السحب، وعندما تعانقت أيدينا ذرفنا الدمع، وما إن بكينا حتى بكت السماء..

كم كنت أتمنى العناق، لكنني خشيت غضب الطبيعة من حولنا وكنت أخشى أن نتلاشى وينتهي الحلم..

قلتُ لكِ في تلك الأثناء:

_أيظلُّ العناق محرماً؟

ابتسمتِ ثم اقتربتِ والخوف يعلو والنبض يزداد وهمستِ لي:

_لا عناق لخائن.

اضطربت وزاد ارتجافي وصرت أرجو ملك الموت أن يأتيني ليخلصني، لكني أحمد الله أنه لم يرسله، فالموت في الحلم حياةٌ جديدة كما يقولون.

ابتسمتِ مجدداً وهمستِ لي:

_لكنني أثق بتوبتك، وأعلم بأنني سأعانق إنساناً خُلق من جديد.

كدت أطير فرحاً، وكطفلٍ يلقى أمه بعد غياب فتحت يدي فأوقفتني وقلتِ:

"بكرا أنت وطالل بركض بلاقيك"

بكتب اسمك يا حبيبي

"بكتب اسمك يا حبيبي عالحور العتيق"

أنهيت منذ أيام مجموعتي القصصية وخرجت أسير في شوارع دمشق احتفالاً بما أنجزت..

ارتديت سترتي السوداء ووضعت القبعة ثم مضيت..

كان الطريق مزدحماً وكانت وجوه الناس تعكس الفرح الذي يرتسم على محياي فقلت في سري:

_لعلهم أرادوا مشاركتي الاحتفال..

وبعد أن سرت عدة خطوات عدت أقول:

_أو ربما يظنونني مجنوناً، ففي آخر مرةٍ نظرت فيها إلى المرآة ورسمت ابتسامةً على وجهي كان مظهري مضحكاً حقاً.. لم يعد الفرح يليق بي.. كما أنني لم

أعد أنتظر قدومه.. مازلت أنتظر عودتكِ فلا فرح بدونها.

استوقفني أحدهم، وكان متسولاً، وقدم لي زهرةً ليحصل على بعض النقود فابتسمت له وأخرجت من محفظتي ورقةً نقدية لكنه تراجع ومضى في سبيله دون أن يأخذها.

لم أعبأ لتبدل حاله واستكملت حديثي الذي بدأته:

_أظنها ستلقى نجاحاً باهراً، فقد وضعت ما بقي من روحي فيها، وقد قمت بكتابتها بكلِّ جوارحي لأُهديها لكِ وأتلقى منكِ التهنئة.. فظمأي لكلماتكِ أضناني.

قاطع شرودي مجدداً صوت ضحكات بعض الأطفال، فالتفت ورأيتهم ينظرون نحوي بشفقةٍ ممزوجةٍ بالسخرية واقترب مني ذاك الطفل وقال بلهجة العالم بما يجول في خاطري:

"بكرا بتشتي الدني عالقصص المجرحة"

يا جارة الوادي

"وتعطّلت لغة الكلام وخاطبت، عينيّ في لغة الهوى عيناكِ"

يحتار قلبي بين التألم مما فعله الصمت الذي أطبق بيننا وبين اتخاذه خليلاً ومؤنساً..

أخبره بأن الصمت الذي زارنا ما هو إلا ضيفٌ ثقيل ولا سبيل لبقائه، سيرحل يوماً وتعود لياليا لسابق عهدها، مكتظةً بالكلام.

*

أمجنونٌ من اتخذ من الصمت رفيقاً؟

لست أدري.. لكنني أصف نفسي بالمجنون كثيراً في هذه الأيام..

فما للعقل حاجةٌ إن لم يفكر في سبل إرضائك، وانتزاع الضحكات من مبسمكِ.

*

الصمت ينهش روحي ويغرقها في الظلمة..

يقلقني ويؤنسني..

يجعلني خائفاً من الذبول والانطفاء قبل عودتكِ، ويربطني بك..

هو صمتٌ بيننا.. صمت يجمعنا..

أخاف أن يطول الزمان وأتذكر أن:

"لا أمس من عمر الزمان ولا غدٌ، جُمِعَ الزمان فكان يوم رضاكِ"

سكن الليل

"لا تخافي يا فتاتي فالنجوم، تكتم الأخبار"

_أتؤمن بالمعجزات؟

_كيف لا أؤمن بها وقد رُزقت بواحدة؟

_لا تحاول الاحتيال عليَّ ودع غزلك جانباً وأجبني.

أتأمل النجوم ويطول الصمت، ثم أنظر نحوها فأرى ابتسامتها تكاد تهرب فألتقطها وأقول:

_انظري نحو تلك النجمة، أترينها؟

تنظر إلى حيث أشير بسبابتي وتومئ برأسها فأكمل:

_منذ أيامٍ أفضيت لها بسري، ورجوتها ألا تبوح لأحدٍ إلا إليك فاسأليها الآن.

تقول متعجبةً:

_وكيف أسألها؟

_انظري إليها ثم اغمضي عينيكِ واسأليها في سرك.

تعود ابتسامتها إليها وتغمض عينيها طائعةً وتضحك ويضحك فؤادي، ثم تنظر إليَّ والنعاس يتسلل إلى عينيها وتتلو على مسامعي بصوتها المجبول بالحب:

_أخبرتني بأنك تحبني وتشتاق إليَّ.

_أليس حديث النجوم معجزةً؟

_بلى.

تقترب وتضع راحة يدها على وجنتي وتهمس لي:

_انظر إلى ضباب الليل الذي يلقي رداءه واسأله عن مدى حبي لك.

أغمض عينيَّ وأسأله في سري ثم أجيبها:

_وأنا أحبكِ بحجم ما في هذا الكون من أسرار.

تتوسد ذراعي بعد أن نُسلِّم بوجود المعجزات فأحدثها:

"وضباب الليل في تلك الكروم، يحجب الأسرار"

دق الهوى عالباب

"دق الهوى عالباب، قلنا حبايبنا"

نسمات الهواء التي تتخذ من غرفتي مسرحاً تحمل شذى عطركِ وترسم في كلِّ ليلةٍ صورةً لعينيكِ..

تظلُّ نافذتي مفتوحةً رغم الضجيج الذي يأتيني من منزل الجيران، ورغم صراخ أمي وتوبيخها وتذكيرها إياي بأن الجو بارد..

نسمات الصباح توقظني، فأنهض وأبدأ بجمع العطر خاصتكِ في رئتيَّ وألوِّح بالقلم راسماً طيفك بالنسيم..

وأعزف ألحاناً عشقناها سوياً..

يُطرق الباب فلا أبالي وأصيح بعد أن تتعالى أصوات الطارقين:

_لا تفتحوا الباب فتفسدوا خلوتي مع العطر الذي أتاني من ديارها.

(مسكينٌ هو)

هكذا يرددون بعد أن يتملّكهم اليأس من خروجي.

يحلُّ المساء فيُطرق الباب مجدداً فأهرع نحوه..

وأستقبل طيفكِ الذي يزورني في كلِّ مساء حاملاً معه الآلات الموسيقية واللوحات والأوراق،
فنعزف سوياً الألحان ونكتب:

"ولما فتحنا الباب، طلوا حبايبنا"

بيتي أنا بيتك

"بيتي أنا بيتك وما إلي حدا"

اكتظَّ المنزل بالسكان بعد أن قام والديَّ بدعوتهم..

لا أذكر بالضبط سبب تلك الدعوة لكنني أذكر بعض التفاصيل:

كانت جدتي تجلس بجانبي وتلتفت نحوي كلَّ عدة دقائق وتقطب حاجبيها مستغربةً.

لم أتعجب ردة فعلها فقد ألِفتُّ تلك النظرات، وكنت أتصنّع الابتسامة في وجه جميع من ينظرون إليَّ تلك النظرة.

ثم تسللت خالتي وجلست بجواري ونطقت بصراحتها المعهودة:

_لمَ تهمل لحيتك هكذا، ألا ترى بأن الشيب يكاد يستولي عليها؟

أجبتها ممازحاً:

_بيني وبين الحلاقين ثأر قديم.

ثم عادت وألقت عليَّ سؤالاً آخر اعتدت أيضاً على سماعه:

_لماذا تعيش في عزلة؟ منذ زمنٍ طويل لم تقم بزيارتنا..

فأجبتها ممازحاً أيضاً:

_أخاف على شياطين الكتابة التي تسكن في غرفتي أن تهرب بخروجي.

تهرع أمي نحوي لتضع حداً لردودي الساخرة وتقول:

_الشمس على وشك المغيب، هيّا إلى المائدة.

فأنهض وأسرع إلى غرفتي لأكتب عنواناً لنصٍ جديد:

"كتبتلك عذابي ع شمس الغياب"

كيفك إنتَ

"بتذكر وقتا آخر كلمة قلتا"

قصى اللهُ أمره ولم أعد قادراً على رؤية ساعاتي تنبض بأحاديثنا..

انتهى الكلام ولم يعد في وسعي السؤال عن حالنا.

كيف حالنا؟

سؤالٌ قد يبدو غريباً للوهلة الأولى، لكنني اعتدت أن يكون حالنا واحداً..

أُسرُّ حين تُسرين وأتألم حين تتألمين..

ضحكتي مرهونةٌ بمزاجكِ الرائق، وكآبتي معلقةٌ بحزنك..

حتى وإن كنت جاهلاً بتقلبات مزاجك وأحوالها هذه الأيام، إلا أنني أفرحُ تارةً فأُرجع حدوث ذلك

لضحكةٍ قد قمتِ بإطلاقها، وأبكي حين أشعر بأن التعب والحزن قريبان منكِ.

أحقاً انتهت أحاديثنا؟

لا.. إنَّ ربي رؤوفٌ بعبده الذي يرجوه في كلِّ مساء أن يقضي له أمراً يعيد له حياته لسابق عهدها..

إنَّ ربي قادرٌ على فعل المستحيل، حتى وإن كان ذلك المستحيل هو عودتنا:

"بيطلع عبالي أرجع أنا وياك"

عندي ثقة فيك

"عندي ولع فيك"

أشياؤكِ تملأ عالمي..

تلازمني أينما ذهب..

أضع القليل من عطركِ على راحة يدي وأخرج..

وأخافُ على الساعة التي قمتِ بشرائها لأجلي من غدر المطر..

وذلك اللوح الذي كُتب عليه: (عندي ولع فيك) يتربع فوق طاولتي..

وأوراقي المبعثرة تملؤها الكلمات وتبقين وحدكِ المقصود بكلِّ حرفٍ منها.

*

حكايةٌ جديدة لهذه الأغنية..

كلماتٌ أُخرى وظروفٌ أُخرى..

والمقصود في الحكايتين أنتِ..

كلُّ الحكايات تعنيكِ..

هكذا أريد أن أعيش الحب الذي بات من طرفٍ واحد، رغم أنني أعيشه، مع أشيائك وذكرياتكِ ومع الكلمات التي أكتبها لكِ..

سيبقى مكانكِ خالياً..

"معقول في أكتر؟!"

بلغه يا قمر

"بلغه يا قمرُ إذ يُنشر الخبر"

يبسط القمر في كلِّ ليلة أجنحته المضيئة ويستيقظ الأرق ما إن أرى الضوء منتشراً..

في كلِّ ليلةٍ لي مع القمر وضوئه حكاية مريرة..

نتصارع ويصبُّ كلٌّ منا غضبه على الآخر..

أصرخ في وجهه طالباً منه العودة من حيث أتى ويجيبني بهدوئه القاتل: سأبقى هنا قابعاً فوق صدرك..

أتعجبون مما أقول؟

حسناً، إن هذا غريبٌ بعض الشيء..

فالقمر صديق الجميع ورفيق سهرهم..

هو بالنسبة لكم هكذا، لكنني أمقته كما يمقت العجوز عكازه الذي يسنده..

أمقته لأنني مللت وجوده في كلِّ ليلة..

ولأنه لا يشاركني الذبول والانطفاء..

لقد أمسى رافضاً الانصياع لما أطلبه منه..

أصابه الغرور فتعالى عليَّ ولم يعد يرسل أشواقي وحنيني..

يأبى الانصياع حين أقول له:

"بلغه يا قمر، أني غداة غدٍ يغتالني السهر"

لو كان قلبي معي

"لكنه راغبٌ في من يعذبه"

في ساعات التفكير أنتقي بعناية مرادفاتٍ للكلمات..

فالحب هو أنتِ ولا شيء سواكِ..

والحنين هو اضطراب نبضات قلبي حينما يمر أمامي اسمك..

والفراق هو برزخي الثاني الذي يفصل بين الحياة التي أعيشها بغير وجودكِ وبين هبوطي في الحفرة..

الذعر هو انقطاع الأمل، ويقيني بأنني لن أستطيع مجدداً سماع صوتكِ..

أما العذاب فهو استمرار العمر طويلاً وبقاؤنا غرباء كما نحن الآن.

في ساعات التفكير الكثيرة أقيس ألم الأغاني التي استمعنا لها سوياً.. وأصنفها..

أختار أكثر الرسائل حزناً وأنتقي أقسى الكلمات..

أقارن بين كم الدموع التي أذرفها في غرفتي وبين ما أبكيه على الشرفة..

أريد إبقاء الألم حياً في داخلي..

فما تبقّى من حياتي لن يكون إلا ربيعاً بعودتكِ أو شتاءً قارصاً باستمرار رحيلك..

"ولست أقبل لا لوماً ولا عذلا"

يا غصن نقا

"إن كنت أسأت في هواكم أدبي"

أقف أمام المرآة فلا أجد أنعكاساً لصورتي فيخفق قلبي خوفاً..

أبحث عني في كلِّ مكانٍ ولا أعثر عليَّ..

ربما نسيتني بين الأوراق..

لكنَّ الأوراق وحيدة.. والقلم طرد بصماتي..

أبحث مجدداً..

بين الذكريات ولا أجدني..

أهرع نحو أمي وأخبرها:

_أين أنا؟

فتجيبني بالصمت ويزداد خوفي..

حتى أمي، لم تعد تراني!

أعاود البحث عني في الطريق ولا أجدني..

وأهرع إلى الشيخ الذي كنت أتلو برفقته كلامَ الله وأسأله:

_أضعت نفسي، فأين أعثر عليها.

يبتسم فيهدأ قلبي قليلاً وينتظر إجابته..

فيجيبني:

_اذهب إلى المحراب واسجد، فبالسجود تعثر على نفسك التي ضاعت بين الخطايا.

أومئ برأسي وأسأل مجدداً:

_أيغفرون لي كثرة ذنوبي؟

فيطمئنني بالقول:

"العصمة لا تكون إلا لنبي"

حبيتك تنسيت النوم

"بجرب أني أنسى، بتسرق النسيان"

_هل تملك الذكريات صوتاً؟

_إنها كذلك حقاً، فقد بتُّ مقتنعاً بأن الألحان التي تُعزف في داخلي ما هي إلا ألحانٌ تعزفها الذكريات..

بعضها عذب كسمفونية من سمفونيات بيتهوفن ورقيقٌ كصوت فيروز..

وبعضها الآخر يصدح في داخلي، أُحسُّ به وكأنَّ أحدهم يضرب طبله بجانب أذني..

ذكرى كلام الحب الذي تبادلناه يستيقظ معي في كلِّ صباح، فأبدأ نهاري هادئاً رائقاً..

وما إن يحل المساء حتى تبدأ ذكريات الرحيل بعزف موسيقاها الصاخبة، فأنام بعد أن تُثقب أغشية عقلي وأذني..

صوتكِ أيضاً يملك لحناً خاصاً به..

لكنه لحنٌ فريد..

عذبٌ في جميع الحالات..

يتراقص قلبي عند سماعه ويرفرف فرحاً..

ويعتصر ألماً عند الحنين إليه..

أليس غريباً أن يكون فرح قلبك وألمه متعلقان بحبال أحدهم الصوتية؟

"حبسي أنت، أنت حبسي، وحريتي أنت"

كرمالك

"والقلب يحن والشوق يجن"

أيُّ معضلةٍ يحاول هذا القلب المتعب حلها؟

وأيُّ خراب تسببه الخيبات؟

الأيام تمضي ثقيلة..

تمضي وتغرز نصلها الحاد في هذا القلب المسكين..

والذكريات التي أصبحت صديقةً لي في كلِّ نصوصي..

ترافقني في كلِّ لحظة.. وفي كلِّ حديثٍ أتحدث به مع الناس..

_متى سينتهي كلُّ هذا؟

_لن ينتهي، ولست أرجو انتهاءه..

_لمَ تكتب وتشكو إذاً؟

_أوَ يُسأل الطائر عن سبب تحليقه؟

_والشوق؟

_يأتيني كلَّ مساء..

يقلب النور إلى الظلمة والظلمة إلى النور..

يفتحُ عينيَّ على الأشياء التي أحاول الهرب منها..

يبعثر علب الدواء ويُقعدني عندما أحاول النهوض..

"وعالبال تعن هاك الليالي"

فايق ولّا ناسي

"فايق شو تمشينا بالليل عالطرقات"

أتذكرين الأحلام التي كانت تنسج لنا لقاءاتٍ غرامية؟

والقصص التي كنتُ أتحدث فيها عن لقاءٍ متخيل جمعني بكِ؟

كم كانت قدرتنا على الشعور بدفء عناق الأيدي، رغم المسافات الشاسعة التي تفصلنا، عظيمة..

ما زلت أملك تلك القدرة.. ويؤلمني فقدانكِ لها.

*

صحيحٌ أنَّ الحياة لا تعترف بالثوابت..

ففي كلِّ صباح، يولد تغييرٌ جديد..

هي لا تعترف بالثوابت لكنني لا أعترف بها..

أجابهها ولا أسمح لها بأن تسلبني الأحلام والتخيلات، والحب..

وحين تيقّنت بأن التغيير قد احتلَّ قلبكِ وبأنني خسرتُ معركةً من المعارك هرعت إلى ربي ليعيد الأمور إلى نصابها..

وهرعت نحو أوراقي وبحثت بين تراتيل فيروز عن لحنٍ يذكركِ..

أوَ ينفع اللحن الذي يقول:

"شو رحنا ومضّينا بضو القمر سهرات"

بليل وشتي

"ومرقي يا سنين وتلجي يا سنين"

كان بكاء السماء في هذا الصباح باعثاً على الأسى، داعياً إلى الوقوع في بحرٍ من الكآبة..

أيقظني صوت طرقات المطر على النافذة، وارتجافي.. ولم أقدر على حسم أمري..

أأظلُّ راقداً في فراشي محاولاً استعادة الدفء الذي فقدته، أم ألتجئ إلى المطر ليغسل خطاياي؟

هذه الأجواء، وهذا الارتجاف يُحيي في قلبي الذكريات، يجعلني تائهاً متألماً..

هذه الأجواء ينقصها صوتكِ الذي كان يشعل قلبي فأشعر بالدفء..

أما وقد رحلتِ..

فالبرد يقتصُّ مني..

كنت أسخر منه حين كنا سوياً..

أقاومه بضراوة في سبيل جرعتي اليومية من ضحكاتكِ..

ولم يعد هناك ما يحجب الصقيع عني..

حتى أثاث غرفتي يرتجف حنيناً مثلي ويحتاجُ إلى توهج حبنا الضائع..

وباب غرفتي..

لم يغلق منذ رحيلك..

"خلِّ بواب الليل علينا مسكرين"

زوروني كل سنة مرة

"حبيبي فرقتك مرة"

في كلِّ مجلس من المجالس التي أُدعى إليها أُسأل السؤال ذاته:

لِمَ تضع السكر في قهوتك؟

ألست مثقفاً؟

(لا أعلم ما هو الرابط بين الثقافة، وبين شرب القهوة أو احتسائها مع السكر أو بدونه)

أجيب دائماً بنفس الإجابة:

الحياة مرة بما فيه الكفاية، فلماذا أجعل قهوتي كذلك؟

كنت أقول ذلك، وأبتسم..

وفي أحد المجالس قال لي أحدهم _وكان أربيعينياً على ما يبدو_ بعد أن أجبت على السؤال التقليدي:

_ماذا رأيت من الحياة؟ ماتزال صغيراً والعمر أمامك طويل..

كدت أنطلق بالحديث عنكِ..

كدت أخبرهم عن مرارة الأيام بدونكِ..

تملّكني الصمت، ولم أقدر على الإفصاح خشية التعرض لسخرياتهم..

أترين ما فعل بي غيابكِ؟

"حرام تنسوني بالمرة"

لا تعتب عليي

"يا خجلة عينيي لو يعرفوا فيي"

في المقهى حكاياتٌ كثيرة أراها في وجوه الجالسين..

أرى الحب في أعين أحدهم، وأرى الحزن في أعين إحداهن..

مسكينةٌ أعيننا..

تحمل في داخلها كلَّ آلامنا..

وعظيمٌ إلهنا إذ خلقها وأعطاها القدرة على البوح والإفاضة بكلِّ مشاعرنا..

أما عن عينيَّ، فقد افتضح النادل أمرهما حين اقترب وحدثني وأنا عالقٌ في الذكريات..

قال لي:

_أيُّ حزنٍ يعيش في عينيك يا سيدي؟

لم أكن أريد يوماً أن يرى الناس الحزن أو الدمع في عينيَّ.. لكنني كنت غافلاً في هذه المرة..

تلكأت وجاهدت عقلي لينقذني من شفقته، لكن دون فائدة.. فظللت صامتاً لعدة دقائق ثم غادرت مسرعاً تاركاً على طاولتي ورقةً كنت قد كتبت عليها:

"لا تعتب عليي"

سهار

"سهار بعد سهار، ت يحرز المشوار"

في كلِّ مرةٍ تتردد هذه الأغنية إلى مسامعي أجدني أعيش الحنين معها وكأنني أعيشه للمرة الأولى..

وها أنا ذا أنسج حكايةً جديدة مستعيناً بها.

حكايةٌ أكتبها بعد فراقنا، وأبحث عن المفردات الحزينة لإتمامها..

لكن..

ما رأيكِ أن نستحضر تفاصيل تلك الحكاية، بدلاً من استحضار الحزن؟

(لقد كانت مليئةً بالحب والغزل)

في تلك الحكاية كنا نجلس تحت ضوء القمر، وكنتِ مشتاقةً جداً وتطلبين مني أن أحارب اللغة لأجلكِ وأُلقي عليكِ قصيدةً..

كنتُ عند كتابتي للحكاية السابقة أميراً يتراقص بين الكلمات وشاعراً لا يُشق له غبار..

أما الآن..

لم أعد أميراً ولا شاعراً..

ما أنا إلا جثةٌ تحاول العودة إلى الحياة..

ما أنا إلا مشتاقٌ متلهفٌ لأن تقولي لي مجدداً:

"ورد وحكي وأشعار بس سهار"

مش قصة هاي

"بتمرق علي أمرق، ما بتمرق ما بتفرق"

_هنيئاً لكِ، لقد أصبح عندكِ من اللامبالاة مخزونٌ كبير، وأصبح اليوم الذي تعيشينه يوماً روتينياً، لا فرق إن كان صوتي حاضراً فيه أم لا.

قلت ذلك في لحظة غضب لطيفها الذي لا يفارقني فأجابني:

_لكنك تستحق هذا، فالكاذبون والخونة ليسوا أهلاً للحب والعطف.

زال غضبي حينها وطأطأت الرأس ورحت أبحث بين الكلمات عما ينقذني.. لكنني لم أجد، فواصل طيفها حربه وأردف:

_لم تصن الحب، وضربت به عرض الحائط، وكنت تتلذذ بالكذب والخداع.

شعرت بقلبي يضرب جدران صدري طالباً الغوث والنجدة..

ثم تماسكت وصحت بصوتٍ مرتجف:

_أليس المحب لمن يحب غفور؟

_هه

قالها الطيف بسخرية ثم أجاب:

_المحب لمن يحب مطيع أيها الغبي.. أما زلت إلى اليوم تلتجئ لهذا البيت وتحِّرف به.

_الرحمة أرجو، والصفح كلُّ ما أتمنى.. الآن أنا طفلٌ وليد، يريد أن يعيش الحب من جديد.

قلت والدموع تنسكب، ونسمات الهواء الباردة تعبث بجسدي، ولم ألقَ جواباً..

غادرني الطيف بلامبالاة وكأن مغادرته تعني:

"أعذارك ما بتنفع معاي"

يبكي ويضحك

"يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحاً"

أترثون لحالي؟

أظنني مدعاةً للرثاء.. فقد ابتليت بداء الكلمات، وبأنني أخُلِّد أوجاعي فوق الأوراق..

أكتب على الورق المبعثر فوق طاولتي أجزاءً من نصوصي وقصصي، وأختار من الكلمات ما يتناسب مع قسوة ما أعيشه..

سطورٌ كثيرة يملؤها الأسى.. وذكرياتٌ مدونة تملأ أرجاء العرفة..

الحكاية تلو الحكاية..

على شكل ومضة أو على هيئة رواية أو قصة أو قصيدة..

حتى عندما أسير في الطرقات هارباً من أوراقي وقلمي، ترونني شارداً مفكراً ألتقط الكلمات التي تحوم حولي لإغرائي..

إنني مدعاةٌ للرثاء يا عزيزتي..

فقصتنا تُعاش مرتين..

وفقداني لكِ أعيشه آلاف المرات.

ترونني:

"كعاشقٍ خطَّ سطراً في الهوى ومحا"

بعدك على بالي

"مرق الصيف بمواعيدو، والهوى لملم عناقيدو"

في مخيلتي:

أسير على الشاطئ، وأرى البحر سعيداً إذ تلاعبين أمواجه..

وأرى الرمال تزغرد تحت قدميكِ..

والسماء من فوقكِ توبخ شمسها كي لا تؤذي جبينكِ..

وقلبي يريد الخروج والذهاب إليكِ..

يريد أن يعيش السعادة التي يعيشها البحر والرمل..

وعقلي يعاتبني تارةً ويهدنني بالألم تارةً..

جسدي بمجمله يطالبني بالاقتراب..

وما أزال واقفاً متأملاً من بعيد..

وفجأةً..

تسرعين الخطا نحوي.. فتُقام في داخلي الاحتفالات..

وتعبرينني وكأنني شبحٌ غير مرئي..

فينسحب الصيف وتغضب السماء من حولي ثم تبكي..

وأستيقظ من أحلامي وأعود إلى طاولتي وأكتب:

"بعدك على بالي، على بالي"

تبقى ميّل

"تبقى ميّل، تبقى اسآل، متل الأول ضل اسآل"

أيحتاج هذا اللحن إلى حكاية؟

إنهُ واضحٌ وضوح الشمس، ولا يحتاج إلى الإسراف في الكلام..

كلُّ جوارحي ترجوكِ السؤال..

عيناي المتعبتان يشتاقان الرؤيا..

متلهفتان لرؤيتكِ من جديد..

وقلبي يصيح مطالباً بصوتكِ..

حتى أصابعي المنسية..

أصابها القحط لعجزها عن الكتابة إليكِ..

(لفتة من بعيد بتكفيني، وقلبي إلك على طول)

أأكتب المزيد؟

ليس لذلك حاجة..

ماذا أضيف وأيُّ رجاءٍ ينفع؟

لست أعلم..

وأخاف أن تبعثري كلماتي في الهواء، أو أن تصبح منسيةً كما أصبحت..

"بس اسألني كيف الحال، اسآل اسآل"

حبيتك والشوق انقال

"حبيتك ما بعرف وين"

الحبر والغضب قد أفسدا حكايتي لهذا اللحن، وإنني أحاول الآن تذكر ما كتبته.

قد يبدو هذا غريباً، فلطالما كنت قادراً، دون بذل أيِّ جهدٍ يُذكر، على تذكّر كلِّ كلمةٍ خطّها قلمي، وتصويبها أيضاً..

لكنني لم أعد هكذا، وأظنُّ أنَّ هذا يرجع إلى اضطرابٍ في عقلي أو خللٍ به..

وقبل أن أبدأ كتابة هذه الحكاية حاولت مدة ساعة كاملة لكنني لم أفلح في أن أعيد كتابة ما كتبته أو قصصته..

ولأن بي بعضاً من العناد والإصرار سأحاول مجدداً، لكن سأكتفي في هذه الحكاية بأن أتحدث عن الشيئين اللذين ابتدأت بهما حكايتي:

أما الحبر، فهو معشوقكِ يا عزيزتي وسلاحكِ، والأداة التي تترجمين من خلالها ما يفيض في داخلكِ من مشاعر أو أفكار، وسأطالب _رغم أنني لست أهلاً لذلك_ بأن تعودي لإسعادي بما تكتبين، فبداخلي شوقٌ كبير للتلذذ بالإبداع الذي اعتدت دائماً التلذذ به والتوّله بالأنامل التي صنعته..

وأما الغضب، وهو أكثر ما تبغضينه في هذه الحياة، والذي كنت بسببه أتلقّى العقابات دائماً، فيؤسفني القول بأنه بات يزورني كثيراً، وقد أصبحت أثور كما لم أعتد فعل هذا..

لربما كان تفسير ذلك أنَّ هذا الغضب هو العاصفة التي يسبقها الهدوء، لكنَّ بي ثقةً عمياء بأن هدوئي سيعود لبسط سيطرته..

الآن أختتم حكايتي إذ سأذهب لشراء قلمٍ جديد بدلاً من القلم اللعين الذي تسبب في إفساد حكايتي تلك، وسأبتاع أيضاً بعض الأوراق فذخيرتي نفذت، وسأكتب لكِ مجدداً:

"بعتلك نوم العينين وتنهيدة قلبي مرسال"

أهواك بلا أملِ

"وعيونك تبسم لي"

ابتسامات الأعين والضحكات، والمسافات الشاسعة التي تحرمني اللقاء وتجعل العلاقة مع الأمل مضطربة ومهددة..

لا أدري بأيها أبدأ..

ولست أدري أن كنت أملك الحق في التحدث عن الحب، بعد أن انتصر الفراق وعشنا الجفاء.

في السابق، كتبت حكايةً عن هذا اللحن، وها أنا أكتب مجدداً..

لكنَّ الفرق بين الحالِ الذي كتبت فيه تلك الحكاية يختلف كلياً عن الحال الذي أكتب فيه الآن..

كان هناك بعض الأمل..

أما وقد حدث ما حدث، فالأمل يبدو مستحيلاً..

أهواك بلا أملِ..

بتُّ هكذا حقاً..

وليس في استطاعتي التعبير عما يفيض في داخلي..

لقد كنت راضياً فيما سبق، وهانئاً ولا أكترث لما يسمونه أملاً، ولا مُسمى لما أشعر به في هذه الأيام..

أهواكِ، دون اكتراث لما ستنتهي إليه الأحوال..

وسأبقى هكذا:

"أهواك ولي قلبُ بغرامك يلتهبُ"

"كان الوداع ابتساماتٍ مبللةً، بالدمع حيناً وبالتذكار أحيانا"

كان الشغف رابطاً بيني وبين الحياة الباهتة التي أعيشها، لكنه كان مرهوناً بك..

أما وقد رحلتِ، لم يحزم أمتعته حتى..

رحل بعيداً، فجأةً، دون وداعٍ، كما فعلتِ..

ثقبٌ في سفينتي يريد القضاء على الأيام المتبقية في حياتي، وما من سبيلٍ لسده..

إلا بعودتكِ.

أما وإن كان ذلك مستحيلاً، فسألملم أوراقي وأُجهّز الصندوق الذي سيحتضنها..

سأكمل كتابة القصص الناقصة والرسائل، وأكتب رسالة وداعٍ إليكِ..

وداعٌ كاذب، لا قدرة لي عليه.

"يا ويل عيوني كيف بتندهلك"

ثلاثة وسبعون يوماً منذ أن أطربتِ قلبي بكلمة "أحبك" . .

ثلاثة وسبعون يوماً من الحرمان . .

آلاف الساعات وملايين الدقائق، انقضت رغماً عني . .

انقضت دون أن أكون راغباً بذلك . .

لكنَّ الحياة لا تأبه بي وبأمنياتي بتوقفها .

وهنا، في هذا الكتاب، ثلاث وسبعون صفحة كُتب فيها، بأصابع مرتجفة وقلبٍ مفقود، عديد الحكايات . .

أبطالها أنتِ . .

كلها تعنيكِ . . وتتوسل قلبكِ عودة الحب الذي كان يجمعنا . .

إشتقنا لمواعيد بكينا

تعذبنا